زمن الاحتلال

المرأة والصورة

كانت وحيدة وسط جموع النساء، حوالي عشرين امرأة وعشرين صورة، ورجال اخذوا ولم يعودوا والصور من مختلف الأحجام والألوان : صورة كبيرة داخل برواز خشبي، صورة صغيرة، رجل بربطة عنق وشاربين، رجل يبتسم، رجل ينظر جانبيا، رجل بالألوان، رجل داخل اطار بني. رجال يجلسون او يقفون داخل صورهم، والصور امامنا، ونحن نرى وكأننا لا نرى.

لكن الصورة التي رأيتها كانت مختلفة. المرأة بلباس اسود طويل، على رأسها طرحة سوداء، وتمشي صامتة خلف كل النساء. البعض يهتفن، البعض ينظرن الى البعيد.. امرأة تقف امام الحاجز وهي تحتضن الصورة الكبيرة، وهم يرون ولا يقولون شيئا.. منذ اشهر طويلة، والنساء يحاولن ان يجدن احدا يصغي الى صوت الحزن الذي يرشح من الصور. يتجمهرن امام سيارات المسؤولين، يجتمعن، يكتبن العرائض، لكن لا احد يسمع، او هم يسمعون ولا يجاوبون، او هم نسوا ان المخطوف هو انسان، وليس مجرد اسم نشر في احدى الصحف، او صورة تحملها امرأة وتتظاهر في كل مناسبة ممكنة.

المرأة التي تلبس الرداء الأسود وتمشي خلف كل النساء، لا تختلف عن الأخريات الا في صمتها الدائم وفي الصورة التي تحملها. صورة صغيرة، صورة باسبور معلقة على خشبة رفيعة، المرأة تحمل الخشبة وتمشي، لا تلوح بالصورة امام احد، لا تتوقف، تمشي كأنها لا تتوقف، كأنها لا تريد من احد ان يرى الصورة. اقتربت من الصورة كي انظر الى عيني الرجل، كانت عيناه مغمضتان،لا لم تكونا مغمضتين، كانتا مجرد عينين مفتوحتين على البياض، لكن الوجه كان شبه ممحو، ثم لم اعد ارى، المرأة تقدمت وتجاوزتني.. لحقت بها وسألتها.. لا اذكر شيئا من اجوبتها.. الحقيقة انها لم تجاوب، كانت ترد على اسئلتي بكلمات غامضة كأنها تمتمات صغيرة، او كأنها الصورة المعلقة على الخشبة .

سألتها لماذا لا تحمل صورة كبيرة مثل الأخريات ؟

قالت او افترض انها قالت انها لا تملك غير هذه الصورة، قالت انها هربت من بيتها بعد ان اتت الجرافة، حملت الأولاد، حملت تذاكر الهوية ونسيت صورة زوجها الكبيرة المعلقة على الحائط، ليست صورته بل صورة له معي ومع افراد عائلتي عندما تزوجنا، وعندما رجعت لتأخذ الصورة كان كل شيء قد تهدم.

لم يبق عندي سوى هذه، واشارت الى الخشبة والصورة الصغيرة..

لكنها تخاف، قالت المرأة انها تخاف على الصورة.. قالت انهم قد يكسروها، او قد يسرقوها، وماذا افعل بزوجي، اصبح بلا صورة، ماذا تفعل امرأة بدون صورة..

لكن الصورة بدأت تصبح قديمة قلت لها ،

لا يهم اعتقد انها قالت لا يهم، اذا رجع سأمزق الصورة ،
واذا لم يرجع ؟

اذا لم يرجع قالت انها لا تعرف، قالت انها تحاول ان تجمع بعض المال، لكن المصور يريد الكثير، قال لها ان الصورة الصغيرة لا تنفع، تحتاج من اجل ان يتم اعدادها من جديد الى الكثير، وانا ما معي مصاري، انا افتش، لكن معك حق، يجب ان لا انساه او انسى صورته.

قالت انهم اخذوه ، هي لا تعرف اين ولا كيف، فتشت في كل مكان، تصور اني فتشت وذهبت الى كل المطارح، ورأيت، لكن لا احد يعرف، الكل لا يعرفون شيئا عنه، وانا لا اعرف، يا ليته سافر، كان يهددني بأنه سيسافر ويتزوج، يا ليته تزوج، على الأقل كنت مزقت الصورة..

اسندت المرأة الصورة بالخشبة الى الحائط وحاولت ان تشرح لي.قالت انها تقبل، تقبل ولن تنتقم يرجعوه كيف ما كان،وانا اقبله كما هو ولن نفعل شيئا، تعبنا، اريده، وسأجلب احسن مصور وآخذ له صورة كبيرة.. قالت وحاولت ان تفهمني انه لا لزوم لكل هذه الأشياء لماذا اخفوه وحده هو ومجموعة من الرجال، لقد اخفوا كل شيء، كل شيء الآن صار مغطى ،البيت انهدم واختفى، المدينة تقريبا اختفت، لماذا اذن، هو وحده يختفي من هذه المدينة، لماذا يضعونه في الأقبية المعتمة، اكيد تعب وجاع.. اكيد...

هي لم تقل شيئا، كانت تقف مرهقة وتسند الصورة الصغيرة الى الحائط، ثم رأيت الصورة وكأنها تنزل عن الخشبة، كان الرجل محاطا بمجموعة من المسلحين، عيناه تغطيهما فوطة بيضاء. الرأس يتدلى الى الأمام. قادوه الى مكان معتم ولم ينزعوا العصبة عن عينه، ولم يسأله احد سؤالا، اخذوه الى الظلام، حاول ان يقول لهم انه لا يريد شيئا، يريد فقط ان يرجع الى البيت، حاول ان يقول لهم ان القصف افضل، ان الرجل لا يستطيع ان يسبح في بحر اسود، حاول لكنه لم يكن هناك احد كي يسمع صوته.

وهو ينزلق من الصورة، وهو يقول للمرأة ان تتركه ينزل الى الأرض، وهو يقول انه تعب من الخشبة التي سمروه عليها ..وهو.. لكنه لم يقل، شيئا، كان داخل صورته، يبحث عن مرآة كي يرى وجهه ويرى عينين مفتوحتين، قال لي انهم اغمضوا عينيه كي لا يروه، وأنه يستحق ان ننظر الى صورته، لأنها تكاد ان تتحول الى مرآة تعكس صور الجميع .

اخذت المرأة الخشبة ومشت مع النسوة ولم تتوقف كي تستمع الى اسئلتي، لم تتوقف كي اقول لها شيئا، فهي لم تعد قادرة على ان تسمع الوعود، وانا لا احمل وعودا، الوعد الوحيد الذي حاولنا ان نمسك به يكاد ان ينزلق في مستنقع الطوائف والتسلط والجنون..

قلت للمرأة، حاولت ان اقول لها، وكانت بيروت تمتد على شاطىء اسود ، تحاول ان تنام،تغمض عينيها وتدخل في صور الرجال، تنخطف اليهم وتمسح الدم والماء الذي يتساقط من جنبهم، وتنحني كي تلملم الحزن وتصرخ مع آلاف النساء وهن يحملن الصور ويدرن في شوارع المدينة، وتمتلىء الطرقات بأصوات الضحايا.

كانوا حوالي عشرين امرأة، كانت الصور في ايديهن المرفوعة.. وكانت هي، تمشي وحيدة وتغمض عينيها على التماعة الحزن الذي يقفز من العينين ويحول الصورة الصغيرة الى مرآة نرى فيها وجوهنا.

الياس خوري